الزَّجَل في نَهضتِهِ الثانية

الزَّجَل سِحْرٌ من عباءَةِ التُّراثِ اللبنانيّ العَريق، خرَجَ كما الفينيق، مُحلِّقًا في سَماءِ الألفيَّةِ الثَّالثة، بخلافِ الذين قالوا باضمِحْلالِه، وبفَشَلِ الذّائقةِ الفنيَّةِ في تَلقُّفِهِ، وبأنَّه لا ينتمي لرُوحِ العَصر. ولكن في نظرةٍ وامضَةٍ إلى شاشاتِ التّلفذة نرى بوضوح أنَّ نصفَ الزَجَّالين فوقَ المَسَارحِ لا تتجاوزُ أعمارُهم الأربَعينَ عامًا، وهمُ المطلوبون أكثر منَ القدامى! وَالجَّوقاتُ التَّقليديَّةُ خبَا بَريقُها القَديم فطَعَّمَتْ نفسَها بعناصِرَ شابَّة، وبرزَتْ جَوقاتٌ جديدة حَمَلتِ الشُّعلةَ وألهبَتِ المَيَادينَ الزَّجَليَّة. هذا وعدَدُ الجَّوقات آخذٌ في التَّصاعُد، تمامًا كما كان في الستِّينات. وعواملُ استمراريَّة الزَّجَل قابعَة فيه. فمَوضوعاتُهُ منسولةٌ منَ الحَيَاةِ اليَوميَّة وشَوَاغلِ النّاس، والغنائيَّةُ المَسرحيَّةُ فيه جذّابة تمامًا كما الأغنية الشَّعبيَّة التُّراثيَّة، وإيقاعُ الغَزَليّاتِ الرَّقيقةِ الطّافرَةِ في أثوابِ القرَّادي والموشَّح والعتابا بَليغٌ، والرُّوحُ التَّنافسيَّة والتَّباري في الحُجَّةِ يُشبهُ التنَاظرَ الفِكريّ حول عقيدَةٍ أو فكرَةٍ فلسفيَّة، والسِّجالاتُ داءُ أيّامِنا هذه! خصوصًا في السِّيَاسةِ والدِّين. وإذا كانتِ النَّهضَةُ الزَّجَليَّة أقلعَتْ في ثلاثيناتِ القرنِ الماضي معَ الشَّاعر أسعد الخوري (شحرور الوادي)، ومعَهُ أبصرَ المَسرَحُ الزَّجَليُّ النُّور، فإنَّ الستِّينات والسَّبعينات هي الذُّرْوَة، ليتراجَعَ بعدَها الزَّجَلُ في سنواتِ الحَربِ الأهليَّة حتى مَرْحَلَةِ الرُّكود في التِّسعينات، لينتهيَ به المطافُ إلى نَهضَةٍ جَديدةٍ واعدَةٍ معَ بزُوغ شمسِ الألفيَّة. والتي ساهمَ في انبعَاثِها مُساهمةً مَشكورةً برنامج (أوف) معَ الشّاعر موسى زغيب والدّكتورة كلوديا شمعون على شاشة الـــ OTV، الذي صنَعَ نجُومًا وجَوْقاتٍ ومواهِبَ خارقة. إلاّ أنَّ المُستقبَل، ومعَ هذه الوَثبةِ المُذهلة، مَشوبٌ بمَخاطرَ وعثرَات قد تُفضي إلى رُكودٍ ثانٍ عوَضَ نهضَةٍ ثانية، ما لمْ يَعِ الشُّعَراءُ تلكَ الكمائنَ الخفيَّةَ التي يَقَعونَ فيها عن صدِقِ نيَّةٍ.. أو سُوْئِها.. وخلاصتُها كالتّالي:

١- الافراط في "العَنتَريَّات": وكأنَّ الجَميعَ يريدُ أن يُصبحَ (أبو علي، الشّاعر زين شعَيب)! واللبنانيُّ يعشقُ "المرَاجِل" و"الفتوَّة". ولكنَّ الاكثار من هذه "البَهْوَرات" لدرَجةِ أن تُمسَخَ المُحاورَةُ

الزَّجَليَّة إلى تبَجُّحاتٍ مَقيتَةٍ بالأنا.. فهذا يُضرُّ كثيرًا بمسيرَةِ الزَّجَلِ وسُمعَتِه. والأنكى من هذا.. هو التَّغنِّي المُبالَغ فيه بأمْجَادِ الوالدِ إذا كانَ شاعرًا أيضًا! المَراجِلُ لطيفَةٌ ظريفة ولكن بشَكلٍ معقول. وهي لا تُناسبُ طابعَ شَخصيَّةِ بعضِ الشُّعَراء! خليل روكز لم يكن "عَنتَريًّا" لأنَّ هذا لا يليقُ بشَخصيَّتِهِ العَميقةِ وأسلوبِه. والكثيرُ من مَرَاجِلِ موسى زغيب، لم تكن مناسبَةً البتَّة لقامَتِهِ الشِّعريَّة. ولكن عندَ زين شعَيب مثلاً المَرَاجِلُ حاضرَةٌ في مكانِها الصَّحيح. إنسجامٌ مُلهَم بينَ المَظهَر ونبرَةِ الصَّوت ونَوعيَّةِ الصُّوَر وطريقةِ بَسطِ التَّحدّيات.. وهذه جَميعُها صنَعَت (أبو علي). ومن الخَطأ استنساخ (أبو عَلي) زُورًا.

٢- لَحْنُ القَصيد: من جاذبيَّاتِ الزَّجَل ألحَانُ القصائِد. وهذه قلَّما ينتبهُ لها الجيلُ الطّالع. إنَّهم يهتمّون بالمَضمون دونَ اللَّحْنَ الصَّحيح للزَّجَل.. خصوصًا في المْعَنّى والمْعَنّى قصيد. وصار كلُّ شاعر يُلحِّنُ القصيدَ كما يحلو له! برأيي هذه آفة. ولو انَّهم أتوا بأفضَلَ لسكَتنا. الشّاعر طليع حمدان يُغنّي كلَّ قصيدةٍ بطريقةٍ مُختلفة. ولكنَّ من أجادَ في تَلحينِ المْعَنَّى قصيد هم خليل روكز وزغلول الدّامور وزين شعيب وإدوار حرب. هؤُلاء تَخرُجُ الأبياتُ من حُنجُرَتِهم عَذبَةً رَخيمَةً تَهُزُّ الكيانَ وتُطربُ الرُّوح. حاولْ أن تسمَعَ مثلاً إدوار حرب على اليوتيوب، يُخاطبُ الخَمرَ قائلاً بصَوْتٍ موسيقيٍّ أنيق: تعا لْعِندي يَ خَمْر ال بِلِقناني/سَقَيتَكْ نَهدتي وْدَمْعَك سَقاني، خَلّي نَهدتي وْخَمْر المْعَتَّق/أماني بالخَوَابي لْ جِيل تاني. فكما أنَّ للشّروقي لحنُه والعتابا لحنُها والموَشَّح لحنُه.. فللقصيدِ إيقاعُه الخاصّ أيضًا.

٣- الاهتمام بالصَّوت: ويأتي ثانيًا "الشّغِل" على الصَّوت. وعدم الوصول إلى اللَّحن الصَّحيح سببُهُ الظنّ بأنَّ الصَّوتَ ليسَ هامًّا. طبعًا هناكَ موهوبون في الصَّوت.. ولكنّ الصَّوت ينمو بالتّمرينات! ومعَ احترامِنا لشَاعريَّةِ أسعَد سعيد المُتميِّزَة فشِعرُهُ لا يُطرب! وموسى زغيب مع ضعفِ الصَّوتِ لديه فقد وَصَلَ إلى تأديَةِ القَصَائد بشَكلٍ رائِع. الزَّجَّالُ شاعرٌ غِنائيّ.. إنَّه مُغَنٍّ! والمُتذوِّقُ يُريدُ أن يَطرَب. ورشيد بك نَخله كانَ شاعرًا فَصيحًا وعاميًّا، وكانَ حَسَنَ الصَّوت.. وهو الذي أضافَ وَزْنَ المْعَنَّى من بَحْر الرَّجَز ولحَّنَه، وسارَ عليه (شَحرور الوادي) من بَعدِهِ. ولهذا السَّبَب نرَى عندَ هذا الأخير بعض المُفردات الفَصيحَة. الشِّعرُ الجَاهليّ غِنائيّ والمَسرح الشِّعريّ الإغريقِيّ القديم أيضًا، وبدايةُ الشِّعر في أوروبّا كذلك. وصدِّقني أيُّها الزَّجَليُّ الواعِد،

وضَعْها حلقةً في أذُنِكَ، أنَّ النّاسَ يُحبُّون الصَّوتَ والمَعاني أكثر بكثير منَ التَّحَديات والتَّبَاهي بالحَسناوات والبُطولات والأمجاد.

٤- البرناسيَّة: وأقصدُ هنا كثرةَ التّلاعبِ العَقيم بالألفاظ. فنحنُ لا نَسمَعُ مَضموناً.. فقط تعارضاتٍ ومُداوراتِ حُروفٍ ومُفردات. يقول شاعرٌ: "سْتَرْجي راسَك تْعَلّي سْتَرْجي"، ويتابع ويقول: "اللّي خَرْجي مش عَمِ يْسَاقبْ عا خَرْجَكْ / اللي خَرْجَكْ مش عَمِ يْسَاقبْ عا خَرْجي". لقد كرَّرَ المَضمونَ نفسَه في البَيْتِ الواحِد وتلاعبَ بالألفاظ فقط! معَ تقديري لشاعريَّةِ القائل. وهكذا عندَما يُعدَمُ الشَّاعرُ الحُجَّة يلجأ لتلكَ البَهلوانيَّاتِ اللَّفظيَّة لإنقاذِ نفسِهِ في السِّجال، ويُمكنُ له أن يَتفادَى المأزَق بابتكار الصُّوْرَة. والصُّورَةُ أقوى بكثير منَ الحُجَّة! الصُّورةُ هي الشِّعرُ الحَقيقيّ والألفاظ خادمَةٌ له. وفي حفلة المون لاسال بين موسى زغيب وطليع حمدان، كانَ الأوَّل يبحثُ عنِ الحُجَّةِ فأخفَقَ، والثاني بَحَثَ عنِ الصُّوْرَةِ فنَجَح. وعندَما تدورُ الكلماتُ على نفسِها فلأنَّها عاجزَة عن تَدمير واختراق أسوار الشَّاعريَّةِ الحقَّة.

٥- مُشكلة القافيَة: وأقصدُ هنا تصنُّع القافيَة. وكأنَّ القضيَّة قولُ ما لمْ يَقلْهُ الآخر! ولذا نسمَعُ قوافيَ ثقيلة خشنَة على السَّمْعِ مُقحمَة بصُعوبَةٍ وخالية من الموسيقى، والغاية فقط إيراد شيء جديد. وأحيانًا تُشبهُ القافية في بيتٍ ما حَطَبَةً مُلصقَة بالغِرَاءِ ومُسَمَّرَةً في دَرْفَةِ مَطبَخٍ خشَبيٍّ حديث.. لا تَنتَمي إلى رُوْحِ البَيت، والسَّامِعُ يَعجَزُ أن يَتَرَصَّدَها. قوافي الشِّعر العامِّيّ مأخوذة منَ الفَصيح. وإذا أرادَ الزَّجَليُّ قافيةً جديدة فليَقرأ المُتنبّي وأبو نوّاس والبُحتري وخليل مطران والأخطل الصّغير وحافظ ابراهيم وعمر أبو ريشة والجَوَاهري. وهنا لا يغتَنِي بالقوافي فقط بل بالشِّعر الخالص. وأنا أنصَحُ بقرَاءَةِ الشِّعر العالمِيّ أيضًا، المُترجَم منه طبعًا، وسيكونُ عندَها للزَّجَل نكهَةٌ متميِّزَة طازجَة دسِمَة، وغِنًى ثقافِيٌّ يوصلُه إلى مَرَاتبِ العالميَّة.

٦- التَميُّز والفَرَادَة: ولا بدّ من الابتعاد عن التّكرارات والتقليدات، والبحث عن شَخصيَّةٍ وهويَّة متميِّزَة للشّاعِر. والأسلوبُ هو الشَّخصيَّة. هناكَ شُعَراء واعدون نسمعُهم ونراهم على الشّاشات، وبسهولةٍ نقدر أن نُصنِّفُهم في دوائرَ وخانات: هذا متأثِّرٌ بتَنْغيمَاتِ طليع حمدان وذاكَ يقلِّدُ نَبْرَةَ موسى زغيب وهذاك "مْسَوْسَح" بزَين شعيب. التأثّر بالكِبار ضَروريّ لتَفتُّق المَوْهبَة، وأمَّا ذَوَبانُ الفَرَادَةِ وتميُّزِ الشَّخصيَّةِ في مَهَاراتِ السَّالفين فهذا ضعف.

٧- كذبَةُ الارتِجَاليَّة: لم يَعُدْ أحَدٌ يصدِّقُ مقولةَ الارتجال. والارتجالُ لا يُنتِجُ شِعرًا.. بل يُنتِجُ تَهْريجات! أيُّها الزَّجَالون الطّالعون، باللهِ عليكم، إنحَتوا أبياتَكم نَحتًا متأنّيًا، وأشبِعوها صَقلاً وتهذيبًا، رأفةً بالشِّعر والذّائقَةِ والسَّمَع ومَقامِ الزَّجَل الذي نحبُّه ونصبوا لمُستقبلٍ عَظيم له.

٨- الحِسَاباتُ الشَّخصيَّة: منَ الآفاتِ الخطيرَة التي يَلمحُها الذَّكاءُ العاديُّ، أنّ المُحاورات الزَّجَليَّة تخفي في معانيها أحيانًا انعكاسًا لإشكاليَّةٍ شَخصيَّةٍ بينَ المُتبارين.. ومهما تظاهروا بخِلافِ ذلك! ليسَ المَطلوبُ أن (تــكَرْسِحَ) الشّاعرَ قبالتَكَ، بل أن تُقولَ شِعْرًا. يكفينا سِجالات سَطحيَّة، وكلام ينِمّ عن غضَبٍ في صَخَبِ الأبياتِ وضَجيجِها. قلائلُ جدًّا من السّامعين الذين يهوَون العُنفَ الكلاميّ على المِنبَر. الذائقةُ الرَّفيعَة تُريدُ توازنًا في الأداء وانضباطًا أخلاقيًّا وتواضُعًا وابتكارًا في المَعاني وَطرَبًا شِعريًّا.. لا تصفيَةَ حِساباتٍ ومُلاكماتٍ وجَوْلاتٍ انتِقاميَّة و"فشّة خِلق" لعَركاتٍ سابقة. كن شاعرًا نظيفًا. وليَكنِ اللهُ هاديًا لكم أيُّها الشُّعَرَاءُ الزَّجَليُّون الشَّباب الرّائعون. نتوقَّعُ نَهضَةً زَجَليَّةً مباركة ترسُمُ معالمَها طَلاَّتُكُم البَهيَّةُ فوقَ المَسارحِ وعلى الشَّاشاتِ الصَّغيرَة، تجعلُ منَ الزَّجَلِ عبقريَّةً فنيَّةً فذَّة، وظاهرةً لا مثيلَ لها في التُّراثِ والآدابِ العالميَّةِ جَميعِها.